سلسلة الأمّة الوسط (٢٩)

كلماتٌ في صناعة الداعية الفقيه

د. وصفي عاشور أبو زيد

المركز العالميّ للوسطيّة
INTERNATIONAL MODERATION CENTER
ارتباط بالأصل واتصال بالعصر

BOOK 29.indd 1 5/8/14 6:23:16 PM

(سلسلة الأمة الوسط)

سلسلة رسائل بحثية قصيرة تضيء جوانب مما يتعلق بالوسطية فكراً وسلوكاً

جميع حقوق الطبع محفوظة
للمركز العالمي للوسطية

الطبعة الثانية
1434هـ = 2013م

الكويت – حولي – الدائري الثالث – بجوار مسجد الوزان
تليفون: 0096522663170 – 0096522663180
فاكس: 0096522663150
ص. ب: 13 الصفاة – 13001 الكويت

الموقع الإلكتروني: www.wasatiaonline.net

الآراء الواردة بمطبوعات المركز تعبر عن اجتهادات أصحابها،
ولا تقتضي بالضرورة الموافقة على تفاصيلها

عن المؤلف

- وصفي عاشور علي أبو زيد.
- مواليد جمهورية مصر العربية ١٣٩٥هـ= ١٩٧٥م.
- متخصص في أصول الفقه ومقاصد الشريعة.
- عضو عدد من المؤسسات الدولية، منها: الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، مجلس أمناء ومكتب تنفيذي رابطة علماء أهل السنة، الجمعية الفلسفية المصرية، الاتحاد العربي للإعلام الإلكتروني.
- نشرت له الصحافة الورقية والإلكترونية مئات المقالات في مجالات مختلفة.
- شارك في عدد من المؤتمرات الدولية في مصر وقطر والكويت والمغرب والجزائر وتركيا.
- له عدد من المؤلفات المطبوعة، منها: نظرية الجبر في الفقه الإسلامي دراسة تأصيلية تطبيقية، في ظلال سيد قطب.. لمحات من حياته وأعماله ومنهجه التفسيري، المحاولات التجديدية المعاصرة في أصول الفقه.. دراسة تحليلية، الحرية الدينية ومقاصدها في الإسلام، مشاركة المرأة في العمل العام، معايير الوسطية في الوقاية من العنف والتطرف، رعاية المقاصد في منهج القرضاوي.

BOOK 29.indd 3 5/8/14 6:23:16 PM

BOOK 29.indd 4 5/8/14 6:23:16 PM

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
مقدمة	٩
المبحث الأول: وجوب التلازم بين الفقه والدعوة	١٢
المبحث الثاني: التكوين الفقهي للداعية	٢٠
المبحث الثالث: التكوين الدعوي للداعية	٣١
المبحث الرابع: محاذير في طريق التكوين الفقهي الدعوي	٤٤
كلمة أخيرة	٤٨

BOOK 29.indd 5 5/8/14 6:23:16 PM

BOOK 29.indd 6 5/8/14 6:23:16 PM

تقديم

إن تحديد المصطلحات، وبيان مضامينها، وضبط مدلولاتها، واستيفاء متعلقاتها، يعد أمرًا بالغ الحيوية في زمان اهتزت فيه القيم، واضطربت فيه المعايير، وتاهت –في معظم الأحيان – معالم الطريق نحو قيم العدل والخير والتسامح.

ومما لا شك فيه أن من أشد هذه القضايا الكلية المعاصرة ملامسة لواقع أمتنا، وأكثرها إلحاحًا إلى إبراز إطارها الشرعي والفكري والعقلي والمعرفي والعملي هي (الوسطية)؛ ذلك لأنها منهج شرعي؛ فبها مناط الخيرية، وعليها ينهض بناء الشهود الحضاري، بيد أن ترنح المسار الفكري بين الغلو والاعتساف من جهة، والاستلاب والتسيب من جهة أخرى، يوجب علينا وقفة تأمل؛ لتصحيح خلل المفاهيم وعوج المواقف.

من هنا كانت عناية وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة الكويت بالوسطية – مفهومًا وممارسة – تحتل مكانًا بارزًا في خطتها وبرامجها وأنشطتها.

ومن ثمرات هذه العناية قيام المركز العالمي للوسطية ليكون إشعاعًا يتوهج في مسيرة البناء الحضاري لأمتنا؛ لتعميق منهج الوسطية مصطلحًا ومفهومًا وضوابط ومعايير، من خلال مدارسة فكرية منهجية لمختلف أطياف الدعاة والعلماء؛ لبسط رؤية مجمعية في ضوء التزام ثوابت الشرع، ورعاية متغيرات العصر، وتأكيد المرجعية التي تعزز وحدة الصف وتقارب الخطى، وتجسد أدب الخلاف، وتعمل على توسيع دائرة المشترك الحضاري، وتعين على قيام شراكة

BOOK 29.indd 7 5/8/14 6:23:16 PM

إنسانية صحيحة وعادلة تفي بمتطلبات التفاعل الإيجابي مع مراعاة حفظ الهوية.

وتجيء سلسلة (الأمة الوسط) التي يتوالى صدورها تباعًا مساهمة من أهل الفكر والعلم والدعوة في تعزيز هذا المنهج المرتبط بالأصل والمتصل بالعصر، آملين أن يكون وميضًا في ضبط موازين السير الحضاري وتعميق مسارات جذوره، راجين في تنوع الرؤى والأفكار ما يعين على إنضاج المفاهيم، وإثراء مسالكها.

وهي من بعدُ دعوة للقارئ الكريم ليضرب بسهم وافر من ثاقب فكره، حوارًا مؤتلفًا وعطاءً موصولا.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

BOOK 29.indd 8 5/8/14 6:23:16 PM

مقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد..

من فضل الله على السالكين سبيل الدعوة، التابعين طريق الأنبياء أنهم من أعلى الناس منزلا، وأرفعهم مكانة، ولا غرو فهم ورثة الأنبياء وحاملو رايتهم، والمبشرون بدعوتهم ورسالتهم، ومن هنا فإن الحديث عن فضل الدعوة إلى الله تعالى وتوضيح منزلتها ومكانتها في الإسلام، وعوائدها على الفرد والمجتمع لا يحتاج لمزيد بيان، ويكفي أنها السبب الذي يتعلق به المؤمن، والعاصم الأكبر حين يحل عذاب الله، والركن الركين الذي يأوي إليه ليحميه ويُجيره: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن: ٢٢ – ٢٣)، وحسبنا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣) لا أحد.

ولكي يحمل الداعية هذا الإرث الضخم، ويقوى على تبليغ هذه التركة الكبيرة، ويصبر على الأذى، ويتأهل لتحمل الصعاب والمشاق، فلابد له من أسلحة يتسلح بها في هذه الطريق، ومن أهم هذه الأسلحة سلاح العلم، وإذا كانت أمة الإسلام توصف بأنها: «أمة اقرأ»، فكيف يكون حال دعاة هذه الأمة؟

BOOK 29.indd 9 5/8/14 6:23:16 PM

وساحة الدعوة في هذه الأيام تعاني من قلة البضاعة وسطحية العلم وسوء العرض في حين أن كل أهل بضاعة يبرعون في تبليغها، ويتفننون في عرضها على الناس، وإذا كان أهل التجارات والأموال يحسنون عرض بضاعتهم ويتقنون تجاراتهم فأولى بأهل أفضل بضاعة وأربح تجارة أن يتأهلوا لها بما يضمن وصولها قوية المضمون، سليمة الأفكار، وجميلة العرض وحسنة المظهر .

ولقد كتب بعض العلماء في هذا المجال -مجال تكوين الدعاة أو ثقافة الداعية- وأشهر ما يتبادر إلى الذهن هنا كتاب فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي بعنوان: «ثقافة الداعية»، ويعتبر هذا الكتاب أصلا لمن يكتب في هذا الموضوع، ومرجعا رئيسا لا يسع من يكتب عنه إلا أن يطالعه ويفيد منه ويرجع إليه، وقد ركز فضيلة الشيخ في كتابه عن إعطاء صورة مثلى لجوانب الثقافات التي ينبغي أن يحوزها الداعية، وبيَّن أهمية كل منها، ومهد طريقا لمن كتب بعده في هذا المجال، وطبيعة كل فن يكتب فيه أنه يبدأ وينشأ ثم يتطور وينمو، فيبني اللاحق على جهد السابق، متمثلا قول الشاعر:

ما نحن فيمن مضى إلا كبقـ ـــلٍ فـي أصـــول نـخـل طـوال

وقد كُتبت في مجال ثقافة الداعية مؤلفاتٌ لدعاة فضلاء، مثل: «رسالة المنهج» للشيخ حسن البنا، و«جند الله»، وفي «آفاق التعليم»، و«إجـازة تخصص الـدعـاة» للشيخ سعيد حوى، و«ثقافة الداعية» للدكتور عبد الله ناصح علوان، و«معا نتطور» لمحمد أحمد الراشد، و«ثقافة المسلم» لعبد الحميد أبو زينة، و«مرجع العلوم الإسلامية» للدكتور محمد الزحيلي، وغيرها من المصنفات في هذا المجال.

BOOK 29.indd 10 5/8/14 6:23:16 PM

وأردت في هذا الكتيب – الذي أسأل الله أن يكون نافعا ومباركا– أن يكون تعميقا لبعض ما كتبه شيخنا الدكتور يوسف القرضاوي وغيره في جانب من الجوانب وهو الفقه، وإضافة لجانب الدعوة، وهو ما لم يذكره كثير منهم، ولعل عدم ذكرهم له لاعتباره أنه أمر بدهي، فهم يتكلمون عن ثقافة «الداعية»، فالداعية هو الذي يتثقف؛ إذن فقد حاز علم الدعوة وفقه الدعوة قبل أي تكوين.

وجاء هذا البحث في أربعة مباحث:

الأول: وجوب التلازم بين الفقه والدعوة.

والثاني: التكوين الفقهي للداعية.

والثالث: التكوين الدعوي للداعية.

والرابع: محاذير في طريق التكوين الفقهي الدعوي.

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يثقل به ميزاني يوم تعز فيه الحسنات، والحمد لله رب العالمين.

وصفي عاشور أبو زيد

الكويت

١٨ ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ = ٥ مايو ٢٠٠٧م

BOOK 29.indd 11 5/8/14 6:23:16 PM

المبحث الأول
وجوب التلازم بين الفقه والدعوة

إذا كان التكوين العلمي للداعية من الأهمية بمكان على وجه العموم، فإن للتكوين الفقهي والدعوي معا له أهمية خاصة تنبع من أن كلا الجانبين يكمل أحدهما الآخر، فإذا كانت الحركة في الدعوة الإسلامية شيئا مهما للفقيه لكي يفيد بعلمه ويحركه ليتجدد ويزداد، فإن الفقه من الضرورات التي يتأسس عليها الداعية، وتتبني بها شخصيته.

والمتأمل للواقع العملي الفقهي والدعوي معا يجد هنالك فجوة ليست صغيرة بين الفقيه وساحة الدعوة، وبين الداعية ومجال الفقه، فقلما تجد داعية يملك عقل الفقيه، أو فقيها يحمل روح الداعية، في حين أنه لا تنافر بين الفقه والدعوة في التصور الشرعي، بل كلاهما يستدعي الآخر ويستوجبه، فلن يجدد الدين في عقول الأمة إلا فقهاء يحملون أرواح الدعاة، ودعاة يملكون عقول الفقهاء.

المطلب الأول- أهمية ممارسة الدعوة للفقيه

لا شك أن تصنيف المصنفات ومعالجة العلم بين الأوراق والكتب مهمة مطلوبة ومفيدة للعَالِم ومن ينتفع بعلمه من بعده، لكن العالم الفقيه إذا لم يتحرك بفقهه بين الناس ويستنزله إلى واقعهم ليعالج به مشكلاتهم، ويداوي به أمراضهم، سوف يتعرض للركود والموت، ومن ثم فلا قيمة لفقه لا يتفاعل مع واقع الناس المعيش.

BOOK 29.indd 12 5/8/14 6:23:16 PM

والحق أن كثيرا من قادة العمل الإسلامي يحثون الدعاة ليتفقهوا ويتعمقوا في فهم مصادر الشريعة ومواردها، وإدراك مبادئها ومقاصدها، وسبر أغوارها وأبعادها، في الوقت الذي يهمَل فيه الحديث عن أهمية أن يكون الفقيه داعية، وأن يمارس الدعوة بفقهه وعلمه الذي حصَّله وتعلمه، وإلا فلا فائدة من فقه بلا دعوة، كما لا قيمة لدعوة بغير فقه.

وجوب الدعوة كلٌّ بقدر علمه:

ولا يخفى أن مهمة الدعوة واجبة على كل فرد على حدة كل حسب فهمه وعلى قدر علمه: «بلغوا عني ولو آية»[1]، ويتعاظم الأمر في شأن الفقهاء والعلماء، ويزداد الوجوب كلما زاد العلم والفقه لدى العالم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

ولنا أن نتأمل لفظ «نفر» في الآية بما في حروفها من دلالات القوة والتكرار والاستمرار، ولفظ «ينذروا» وهي معطوفة على «ليتفقهوا» وهي للتعليل، فدل على أن علة النفرة للعلم هي التفقه في الدين وإنذار الناس، وهذا كله يدل على أن ممارسة الفقيه أو العالم عموما للدعوة فريضة شرعية وضرورة واقعية.

المطلب الثاني- ثمار ممارسة الفقيه للدعوة

ولن ندرك قيمة ممارسة الفقيه للدعوة إلا إذا وقفنا على الثمار التي يجنيها العالم الفقيه من وراء ذلك، ومن أبرز هذه الثمار:

١- جزء من حديث في صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل.

BOOK 29.indd 13 5/8/14 6:23:16 PM

١- أنه يؤدي زكاة هذا العلم، فزكاة العلم تعليمه وبذله للناس، وبذلك يؤدي شكر النعمة ليحفظها الله عليه.

٢- أن الله تعالى سيورثه علم ما لم يكن يعلم؛ لأنه ببذله العلم للناس يكون عمل ببعض علمه، وقد جاء عن علي رضي الله عنه قوله: «يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالِم من عمل بما علم، ووافق علمُه عملَه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملُهم علمَهم، وتخالف سريرتُهم علانيتَهم، يجلسون حِلَقًا فيباهي بعضُهم بعضًا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله»[1].

٣- أن العالم الفقيه إذا تفاعل مع الواقع ونزل مع الناس بعلمه تكشفت له أمور وعوالم أخرى لم تكن لتتكشف له وهو قاعد آمن ساكن بين الكتب والأوراق، وهذا أمر يعرفه جيدًا من مارسوا العمل الإسلامي من الفقهاء.

٤- أنه يدرك بعمله ودعوته لذة لم يكن يشعر بها وهو يعالج مسائل العلم بعيدا عن واقع الناس، ويدرك من أسرار النصوص وُجوهًا جديدة يستنزلها الواقع المتجدد والأحداث المستمرة، وهذا لا يتاح لمن لا يعمل بعلمه.

٥- أنه إذا تعلم العلم وعمل بما علِم، وعلّم الناس ما علمه وعمل به، يكون بذلك من الربانيين الذين قال عنهم القرآن: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩).

فالربانيون -كما قال الإمام الطبري- هم عماد الناس في الفقه

١- سنن الدارمي: باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، حديث رقم: ٣٨٢.

BOOK 29.indd 14 5/8/14 6:23:16 PM

والعلم وأمور الدين والدنيا؛ ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأحبار؛ لأن الأحبار هم العلماء. والرباني: الجامعُ إلى العلم والفقهِ البصرَ بالسياسة والتدبير والقيامَ بأمور الرعية وما يُصلحهم في دنياهم ودينهم[1].

٦- أنه دائما يستشعر الحاجة إلى التعلم وإلى مزيد من الاطلاع لما يواجهه في المجتمع وفي حياة الناس من مشكلات لم تكن موجودة من قبل، ومن ثم فهو يسعى إلى تكييفها الفقهي، ولا يتأتى له ذلك إلا بإعادة قراءة ما قرأه بروح أخرى وفهم آخر، إضافة إلى قراءة جوانب ومساحات من الفقه والأصول لم يقرأها من قبل، وبهذا يستشعر الفقيه مدى حاجته لأن يكون طالب علم إلى آخر لحظة في عمره.

هذه -وغيرها- ثمار يجنيها الفقيه من وراء عمله بفقهه، وتعليمه الناس هذا العلم، وتفاعله بعلمه مع واقع الناس، وممارسته الدعوة في ساحة العمل الإسلامي.

والحق أن مسألة ممارسة الفقيه للدعوة تحتاج إلى إلحاح متكرر من قادة الرأي ورموز العمل الإسلامي وعلماء الأمة؛ لأن هناك بعض الفقهاء والعلماء الراسخين لا يمارسون الدعوة بعلمهم ويكتفون بوظيفة هنا أو هناك، أو الاكتفاء بمعالجة هذا العلم بين الكتب والأوراق إما لرهبة أو لرغبة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالحديث عن ضرورة الفقه للداعية طغى على الحديث عن أهمية ممارسة الفقيه للدعوة، وهذا يستدعي تسليط الضوء بصورة أكبر على هذا الجانب الذي به ستحل كثير من مشكلات الأمة، ويكون الفقيه أكثر فاعلية وفائدة لنفسه ولأمته.

١- جامع البيان للطبري: ٣٢٧/٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

BOOK 29.indd 15 5/8/14 6:23:17 PM

المطلب الثالث- ضرورة الفقه للداعية

وإذا كان الفقيه في حاجة ماسة إلى ممارسة الدعوة، وربما أفاد أمته بوجه ما إذا اقتصر على معالجة العلم بين الكتب والمصنفات، فإن الفقه ضرورة -بالمعنى الشرعي للكلمة- للداعية لا يصح أن يمارس الدعوة إلا بعد تحصيله والغوص في بحاره، وإلا أساء من حيث أراد الإحسان، وعطل سير الدعوة الإسلامية حينا من الدهر، وقديما قال الشاعر:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

ولهذا وجدنا الحديث مُركزا على هذا الجانب لدى المهتمين بالشأن الإصلاحي، والمنظِّرين للحركة الإسلامية؛ لأن الآثار السيئة التي يحدثها الداعية غير الفقيه لا تقارن بحال من الأحوال بالآثار السلبية التي يحدثها الفقيه الذي لا يمارس الدعوة.

والفقه للداعية هنا يعني أمرين:

الأول: الفقه بالأحكام الشرعية، سواء كانت أحكاما في العقيدة «الفقه الأكبر»، أو أحكاما فرعية عملية «الفقه الأصغر»، وكل ما يتصل بعلوم الشريعة مما يدور حول الفقه، وهو ما نعنيه بالكلام هنا.

والثاني: الفقه الدعوي، أو الجانب الفني في الدعوة، وهو ما تضخم عنه الكلام إلى درجة الطغيان على المعنى الأول.

والحقيقة المرة أن الدعاة اليوم يحتاجون إلى إعادة صياغة وتكوين من جديد، لا سيما في أمور الثقافة الشرعية وغير الشرعية، أو ما يطلق عليه: «التكوين العلمي للداعية»، فإن كثيرا -إن لم تكن أغلبية-

BOOK 29.indd 16 5/8/14 6:23:17 PM

من الدعاة اليوم يعاني فقرا مميتا في تكوينه العلمي، ويمارس عمله بشيء من «الروتينية»، فهو يؤدي دوره بروح الموظف، لا بروح الداعية المصلح.

المطلب الرابع- الأسباب الداعية لتفقيه الداعية

وربما أدركنا خطورة ممارسة الداعية غير الفقيه، أو ضرورة الفقه للداعية إذا علمنا أسباب ذلك وآثاره، والتي منها:

١- أن الداعية بتعلمه الفقه يمحو الجهل عن نفسه أولا قبل أن يمحوه عن غيره، وهو فرض عين يُطالَب به عموم المسلمين، فضلا عن الدعاة إلى الله تعالى.

٢- أن الداعية يتعرض في المسجد وفي الشارع وفي عمله إلى أسئلة الناس، فإذا لم يكن لديه زاد شرعي وعلم شامل بالأحكام فلن يستطيع مواجهة هذا الجمهور، مما يؤدي إلى فقدان الثقة فيه، وربما قاده ذلك إلى الكلام بغير علم، فيحل الحرام ويحرم الحلال، كمحاولة ضالة منه لتثبيت الثقة فيه عند الناس.

٣- أن الداعية إذا تزود بالعلم الشرعي النافع -والفقه العملي على وجه الخصوص- فإنه يستطيع أن يرد على الشبهات التي تثار حول الإسلام في كل عصر -وما أكثرها في عصرنا- ليثبت قلوب الناس على الإسلام، ويزداد الذين آمنوا إيمانا، وهنا تتأكد شمولية الثقافة الشرعية بكل أنواعها، سواء كانت في العقيدة أو الفقه أو غير ذلك.

٤- أن الداعية بغير إحاطة بالعلوم الشرعية لن يدرك «فقه النِّسَب» بين الأمور التي يتحدث فيها، وطرق الحديث عنها وكيفياته، فربما

BOOK 29.indd 17 5/8/14 6:23:17 PM

قدم النافلة على الفريضة، والجزئيات على الكليات، والفروع على الأصول، والمهم على الأهم، وهو ما عبر عنه الشيخ محمد الغزالي بـ«الحَوَل الفكري» حين قال: «رأيت بعض الناس مصابا بحَوَل فكري لا تنضبط معه الحقائق، قد يرى العادة عبادة، والنافلة فريضة، والشكل موضوعا، ومن ثم يضطرب علاجه للأمور، وتصاب الدعوة على يديه بهزائم شديدة»[١].

من هنا وجب أن يعاد النظر في التكوين العلمي للدعاة، وإذا كانت هناك علوم كثيرة ينبغي أن يحصلها لتكتمل شخصيته العلمية مثل: السيرة والتاريخ والعلوم الإنسانية واللغوية؛ فينبغي أن تحتل العلوم الشرعية -والفقه في المقدمة منها- مكانتها اللائقة بها حتى لا تصاب الدعوة على أيدي الدعاة «بهزائم شديدة»، كما عبر الشيخ الغزالي يرحمه الله.

والذي يرجع بذاكرته إلى أعلامنا المسلمين في التاريخ لن يجد الذاكرة تستوعب غير الفقهاء الدعاة والدعاة الفقهاء، الذين أحيوا الأمة بفقههم ودعوتهم، وقادوها إلى الطريق المستقيم، أمثال: أحمد بن حنبل، وابن تيمية، والعز بن عبد السلام، وابن القيم، وغيرهم ممن جمعوا بين الفقه والدعوة.

فلا بد أن يمارس الفقيه الدعوة، ولا بد أن يتسلح الداعية بالفقه، ولا بد من الجمع بين العلم والعمل والتعليم؛ ذلك أن العالم بلا عمل وتعليم لا قيمة له، وربما قاده ذلك إلى جمود علمه وموته دون أن يحمله عنه أحد، والعامل المعلم بلا علم سيكون مصيره حتما الضلال

١- الحق المر: ص ١٣٥، طبع مركز الإعلام العربي، القاهرة، ط ثانية، ١٤١٧هـ، وراجع خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة: ١٧/١، طبع دار الاعتصام، القاهرة، بدون تاريخ.

BOOK 29.indd 18 5/8/14 6:23:17 PM

والإضـلال؛ لأنه يعمل بغير علم، والمعلم بلا علم وعمل منافق يقول ما لا يفعل، ويعلّم ما لم يعلم، فلا يصح أن ينعزل الفقه عن الدعوة، ولا يجوز للدعوة أن تكون بغير فقه، بل لا بد من اجتماع هذه الثلاثة: التعلُّم، والعمل، والتعليم؛ حتى يكون الداعية أو الفقيه نبتة صالحة في المجتمع، وكلمة طيبة بين الناس تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

BOOK 29.indd 19 5/8/14 6:23:17 PM

المبحث الثاني
التكوين الفقهي للداعية

وتقديم الحديث عن التكوين الفقهي للداعية على التكوين الدعوي هو الأقرب إلى المنطق السليم، والمناسب للواقع المشاهد، وإن كان التكوين الدعوي من الأهمية بمكان؛ إذ إن الداعية دائما ما يُسْأل من جماهير المسلمين عما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم، فالداعية أو الخطيب أو الإمام هو ملجأ عموم الناس في المسائل الفقهية وأمور الدين، وربما أمور الدنيا في بعض الأحيان.

والداعية أمام هذه الأسئلة ليس أمامه إلا ثلاثة خيارات:

الأول: أن يصمت أو يعتذر عن الإجابة لعدم علمه، وهذا يفقد الناس الثقة فيه، ويقلل تأثيره فيهم، لكن صمته وقوله لا أدري هو الصواب بين يدي الله حتى لا يفتي بغير علم.

الثاني: أن يفتي بغير علم حتى لا يفقد ثقة الناس، فلا يكاد يسأل سؤالا ويقول لا أعلم، أو الله أعلم، بل يجيب عن كل ما سئل، ويتحدث بكل ما علم، وهذه هي الطامة الكبرى، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا المسلك؛ حيث روى البخاري في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسُئلوا، فأفتَوْا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

١- صحيح البخاري: كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم.

BOOK 29.indd 20 5/8/14 6:23:17 PM

وقال ابن عطاء الله في حكمه المعروفة: «من رأيته مجيباً عن كل ما سُئل، ومعبراً عن كل ما شَهِد، وذاكراً كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله»[1].

ولأن الحديث عن الشيء مع عدم العلم به يوقع صاحبه في متناقضات ربما أدت إلى التكذيب به والإنكار عليه، فقد عاب القرآن على أقوام سلكوا هذا المسلك حين قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ (يونس: ٣٩).

وكم حذر علماؤنا من مغبة الإفتاء بغير علم فضلا عن تاريخ الصحابة والتابعين والسلف الصالح المليء ببيان خطر الإفتاء والتهرب من الفتوى وإحالتها بعضهم على بعض[2].

الخيار الثالث: وهو الصواب: أن يجيبهم على تساؤلاتهم بعلم وبينة، وحكمة وبصيرة، وهذا هو الخيار الذي لا يسع الداعية سواه، ومن هنا وجب عليه أن ينظر في أمره، ويخطط ليُكوِّن نفسه تكوينا فقهيا راسخا يمكِّنه من الوفاء بحاجات الناس، فضلا عن رفع الجهل عن نفسه، وهو مستوى مطالب به كل المسلمين، ومن هنا فإن هناك أسئلة ينبغي طرحها في المطلب التالي.

المطلب الأول- أسئلة أمام الداعية المتفقه

وهنا يثار عدد من الأسئلة أمام الداعية الذي يريد أن يكوِّن نفسه تكوينا فقهيا، هل يبدأ من الكتب الميسرة السهلة المعاصرة أم يبدأ بأمهات الكتب القديمة التي تحتوى على شروح وحواشٍ، وهل يتفقه على

١- إيقاظ الهمم في شرح الحكم: ص٨٥، لأحمد بن محمد بن عجيبة، تقديم ومراجعة محمد أحمد حسب الله - دار المعارف - القاهرة.
٢- راجع في هذا بتوسع بدايات كتاب إعلام الموقعين لابن القيم.

BOOK 29.indd 21 5/8/14 6:23:17 PM

مذهب واحد أم يقرأ في كل المذاهب، أم يترك المذهبية ويقرأ في الفقه المعاصر الذي تميز بالتيسير والتقريب، وهل إذا كان متعلما للفقه على مذهب واحد وجب عليه أن يفتي بمقتضاه حتى لو اختلف مع الأشخاص والعصور والبيئات التي ساد فيها فقه آخر، وهل ينكر ما عليه الناس مما يعد مخالفا لمذهبه في مذاهب أخرى حتى لو كانت المسألة خلافية فيها أكثر من رأي، وهل يتعلم على يد شيخ يأخذ عنه الفقه أم بوسعه أن يحصل العلم الشرعي وحده لا سيما في عصرنا الذي تيسرت فيه أسباب العلم من أسطوانات مدمجة ومواقع إنترنت، مع وجود الكتب والمؤلفات التي تعرض العلوم مقرَّبة ميسرة؟!.

كل هذه أسئلة نحاول أن نجيب عنها في السطور التالية كي يكون التكوين الفقهي للداعية على علم وحكمة وفهم وبصيرة، يرفع به الجهل عن نفسه أولا، ويوفي به حاجات جمهور المسلمين.

أهمية الشيخ:

وجود الشيخ المُعلِّم يعتبر أمرا مهما في طريق طلب العلم الشرعي، حتى مع تيسير العلوم وتوافر وسائلها، وإذا كان المعلم ضرورة لا غنى عنها في تلقي العلوم الدنيوية من طب وهندسة وغيرها من علوم، فإن وجوده في تلقي العلم الشرعي له أهمية خاصة.

وتكمن أهمية تلقي العلوم الشرعية على شيخ في مجموعة أمور، لعل من أهمها ما يلي:

أولا: أن الشيخ يوفر على المتعلم كثيرا من الجهد في فهم مسائل هذه العلوم؛ لأن هذا الشيخ له معاناته السابقة في فهم هذا العلم وسؤال العلماء عما يعن له حتى استوعب هذه المسائل وفهم تلك العلوم، وهو ما

BOOK 29.indd 22 5/8/14 6:23:17 PM

يوفر الجهد في الاستيعاب، والطاقة في التحصيل.

ثانيا: أن الشيخ يوفر على المتعلم طول الوقت في طريق التحصيل؛ لأنه يضع قدمه على الطريق الصحيحة ابتداء، والمتعلم بلا شيخ ربما بدأ طريقه بانحراف يسير ثم مع مرور الزمن يتسع هذا الانحراف شيئا فشيئا إلى أن ينتهي نهاية بعيدة كل البعد عن العلم السليم وطريقه الصحيح، فضلا عن أن يبدأ بانحراف واسع فينتهي إلى الضلال، وقد قال فقهاؤنا: «يغتفر في النهايات ما لا يغتفر في البدايات»، فالخطأ في أساس البناء لا يغتفر بحال من الأحوال إلا بهدم هذا البناء، أما الخطأ في الأدوار العليا ربما وجدنا وسيلة أو أخرى لاستدراك ما حدث من خطأ أو انحراف.

ثالثا: أن الشيخ يبين للمتعلم مصطلحات هذه العلوم، وهذه العلوم لها خصوصيتها في مصطلحاتها، ودلالات هذه المصطلحات، وفي الفقه على وجه أخص لا سيما في الفقه المذهبي الذي له رموزه ومصطلحاته التي تعبر عن مضامين ومسميات خاصة لا يعرفها إلا أهل التخصص ومشايخ العلوم الشرعية، وبدون توضيح هذه الرموز والوقوف على معاني تلك المصطلحات يشعر المتعلم أنه لا يفهم شيئا[1].

كيف يختار الشيخ؟

ولا ينبغي للمتعلم أن يختار أي شيخ من الشيوخ، بل لابد أن تتوافر فيه صفات هي ما ينبغي أن يتمتع بها من يكون اختياره موفقا، ومن أهم هذه المواصفات:

١- ألف الدكتور علي جمعة كتابه «المدخل»، وأحصى فيه هذه المصطلحات والرموز بعد أن قضى في جمعها عشر سنوات، وهو جهد طيب ومبارك انتفع به طلاب العلم عامة، وطلابه على وجه الخصوص.

BOOK 29.indd 23 5/8/14 6:23:17 PM

أولا: أن يكون على خلق طيب وصلة قوية بالله، وهذا من أهم الأمور؛ لأن العالم الموصول بالله سيراعي في المتعلم هذا الجانب ويسقيه مع العلم الخلقَ والتقوى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩).

ثانيا: أن يكون عالما متمكنا، فالعالم المتمكن هو الذي يعرف خبايا العلم، وأين معاقله وفرائده، وأين مكامن القوة فيه ومواضع الصعوبات، فلكل علم رجاله، ولا ينبئك مثل خبير.

ثالثا: أن يكون عاملا بعلمه، فعلم بلا عمل لا قيمة له، وعمل بلا علم يؤدي إلى بدعة وضلالة، فلا يبلغ العالم أن يكون ربانيا إلا إذا جمع بين العلم والعمل والتعليم.

رابعا: أن يكون عالما مهموما بقضايا الأمة، وليس مجرد داعية أو شيخ يجلس لتعليم الناس - وهذا مهم - أو يلقي الخطب والدروس، لكن يكون عالما مجاهدا يجأر بالحق، ويصدع بالصدق، ويحيا لقضايا أمته الكبرى، ولا يخشى في الله لومة لائم.

المطلب الثاني- خطوات هامة تتصل بالداعية ومنهجية التعلم:

ولكي يكون منطلق الداعية المتفقه منطلقا ثابتا راسخا، سليما صحيحا، ينبغي عليه أن يسلك سبيل مجموعة من الخطوات التي تصحح له مساره، وتجعله موفقا مسددا، وهذه الخطوات منها ما يتصل بالداعية المتعلم بشكل عام، سواء كان تكونه فقهيا أم غير ذلك، ومنها ما يتصل بطريقة التعلم ومنهجيته.

BOOK 29.indd 24 5/8/14 6:23:17 PM

الفرع الأول- ما يتصل بالداعية:

ولعل من أهم ما يتعلق بالداعية نفسه ما يلي:

أولا: إخلاص النية، فإن النية هي روح العمل، وبغيرها يصبح العمل جثة هامدة لا روح فيه ولا أثر له، وقديما قال ابن عطاء الله: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها»[1].

ومكانة النية والإخلاص في الأعمال أمر مفروغ منه لا يستدعي مزيد بيان واستشهاد من القرآن أو السنة، وحسبنا أنها مناط القبول عند الله تعالى، وإنما لكل امرئ ما نوى، وكما قال البحتري: «نفس تضيء وهمة تتوقد»، فعبر عن النية الصالحة بالضياء، وعن الهمة العالية بالتوقد.

ثانيا: استشعار أهمية الرسالة التي أقامه الله فيها، واستأمنه عليها، وهي رسالة الأنبياء والمرسلين، وميراث الأنبياء، فإنهم لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وهو مقام جليل يعبر عنه ابن عطاء الله حين قال: «إن أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر في ماذا يقيمك»[2].

ثالثا: إرادة التعلم، حيث إن كثيرا ممن يريدون أن يتعلموا يبدءون في سلك سبيل التعلم ثم بعد فترة يسيرة من الزمن يتراجعون ويتساقطون، ومن هنا تبدو أهمية قوة الإرادة وصلابة العزيمة وعلو الهمة، وقد قال أبو الطيب في هذا المعنى:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان

١- إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص٤٩.

٢- السابق، ص١٩٢.

BOOK 29.indd 25 5/8/14 6:23:17 PM

رابعا: استفراغ الوسع وبذل الجهد، فإن من رام شيئا جاهد من أجله وبذل فيه النفس والنفيس، ومن أحسن عملا فلن يضيع الله أجره، ومن طلب شيئا وبذل أسبابه وفقه الله وزاده توفيقا.

خامسا: وضوح الرؤية واستصحاب الهدف: وهذه من الأمور المهمة التي يجب أن يدركها المتكوِّن، فتكون حاضرة عنده لا تغيب، حتى لا يضل الطريق، أو يميل به السبيل، فيطول عليه المقصود، ويبعد عنه هدفه المروم، وهذا يوجب عليه أن تكون رؤيته واضحة، مستصحبا لهدفه في كل وقت.

سادسا: قياس مدى ما حققه من إنتاج، فالمتعلم لو لم تكن له خطة بناء على وضوح الرؤية وتحديد الهدف، فلن يكون سيره منتجا على المستوى المطلوب، ومن هنا كان من الأوقع له تحقيقا للهدف وتحسينا في التعلم، وتجويدا في السير: أن يضع لنفسه خطة إنجاز ثم يتابع نفسه فيها من خلال قياس ما حققه على ما كان مطلوبا.

سابعا: المداومة والاستمرار، وهي مترتبة على ما قبلها ونتيجة طبيعية لها، فحين يصدق العزم وتعلو الهمة لا شك يكون الاستمرار والدوام، مهما كانت العقبات، ووقفت أمامه الأغيار والمعطلات، وخير الأعمال عند الله أدومها وإن قل.

الفرع الثاني- طريق التعلم ومنهجيته:

أما فيما يتصل بطريق التعلم ومنهجيته في محاولة لإجابة بعض الأسئلة المهمة السابقة، فلعل من أهمها ما يلي:

أولا: أن يتعرف على شيخ أو أكثر في كل علم ليكون مرجعه وموئله الذي يرجع إليه ويستفسر منه ويتعلم عليه ويستشيره فيما يعن له

BOOK 29.indd 26 5/8/14 6:23:17 PM

من مسائل العلم، وبتعرفه على الشيخ سيوفر عليه الكثير من الجهد والوقت والمعاناة، وينتفع بما ذكرناه قبل قليل في أهمية الشيخ.

ثانيا: أن يبدأ في الفقه بالكتب الميسرة السهلة القريبة المأخذ، التي لا تتقيد بمذهب، مثل كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق، والفقه الواضح للدكتور محمد بكر إسماعيل، ويستوعبها استيعابا جيدا، ثم بعد ذلك يسعه أن يتدرج مع الكتب في مستوياتها المختلفة.

ثالثا: يسعه بعد ذلك أن يقرأ كتابا موسعا مثل: «الشرح الممتع» للعلامة ابن عثيمين، و«نيل الأوطار» للشوكاني، أو «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد، ثم بعد ذلك يطالع موسوعة مثل «المغني» لابن قدامة، أو «المجموع» للنووي، يرجع في ذلك كله إلى شيخه ويتابع معه ما يعرض له من صعوبات وإشكالات.

رابعا: إذا أراد أن يتمذهب ويتبحر في أحد المذاهب الفقهية فلا بأس، بل ربما يكون ذلك مطلوبًا ومهما في منهجية طلب العلم الشرعي، وبخاصة في الفقه، مع مراعاة أن هذه المذاهب غير متعبد بها إنما هو يتمذهب فقط كطريقة إجرائية للتعلم بلا تعصب أو إنكار على المخالف فيما يجوز فيه الخلاف، ثم إذا نزل في بيئة تتعبد على مذهبٍ غير مذهبه وجب عليه أن يتعرف على هذه البيئة ويتفقه في هذا المذهب لئلا يصطدم بالناس فيسيء من حيث أراد الإحسان وتصاب الدعوة على يديه بهزائم شديدة.

خامسا: من الحكمة ألا يُدخل نفسه في عويص المسائل وكبير القضايا التي تجتمع لها المجامع ويُحشد لها كبار العلماء، فليحرص طالب العلم على البدء بصغار العلم قبل كباره، ولا يحاول أن يأخذ

BOOK 29.indd 27 5/8/14 6:23:17 PM

العلم جُملة، فإن من رامه جملة ذهب منه جملة، وقد قال الإمام البخاري رحمه الله: «الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[١].

سادسا: الإلمام بعلم أصول الفقه، وهو علم على درجة كبيرة من الأهمية إذ لا يصح العلم الحقيقي بالفقه إلا به؛ لأنه إذا كان علم مصطلح الحديث يُسلِّم لنا الدليل، فإن علم أصول الفقه يسلم لنا الدلالة.

ويليق للمبتدئ أن يتصفح كتابا مبسطا مثل كتاب: «الأصول من علم الأصول»، للشيخ محمد الصالح بن عثيمين، أو كتاب: «تيسير علم أصول الفقه» لعبد الله الجديع، أو كتاب: «علم أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف، ثم يقرأ بعد ذلك -إن شاء- الكتب المعاصرة التي تم تأليفها في القرن العشرين على يد كبار الفقهاء والمجتهدين في هذا الزمان، ومنها: «أصول التشريع الإسلامي» للشيخ علي حسب الله، و«أصول الفقه» للشيخ محمد أبو زهرة، و«أصول الفقه» للشيخ محمد الخضري، و«الوجيز في أصول الفقه» للدكتور عبد الكريم زيدان، وإن أراد التوسع فليقرأ كتاب: «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول»، للعلامة الشوكاني.

سابعا: الاطلاع على القواعد والضوابط الفقهية، وهو علم مهم في اتصاله بعلم الفقه؛ لأنه بغير القواعد أو الضوابط لا يستطيع الإنسان أن يضبط الفروع، فمعرفة القواعد والإلمام بالضوابط يربي عقلية علمية وينشئ ملكة فقهية؛ لأن القاعدة قضية كلية تضم

١- صحيح البخاري : كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل.

BOOK 29.indd 28 5/8/14 6:23:17 PM

تحتها فروعا كثيرة، ويناسب المبتدئ في هذا العلم أن يقرأ كتاب: القواعد الكلية والضوابط الفقهية للدكتور محمد عثمان شبير، أو كتاب: القواعد الفقهية للدكتور علي أحمد الندوي، أو كتاب: القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه للدكتور محمد بكر إسماعيل، ثم إن شاء التوسع فكتاب: الأشباه والنظائر للسيوطي، ولابن نجيم أيضا بنفس العنوان.

ثامنا: الإلمام الواسع بعلم مقاصد الشريعة؛ لأن لذلك أثره الكبير والعميق في نجاح الدعوة إلى الله تعالى، فمن مراعاة المقاصد والتمكن فيها ينجح الداعية في قراءة الواقع، ومراعاة الأعراف، ووزن المصالح والمفاسد...إلخ، وكل ذلك من ضروريات الدعوة.

وفي عصرنا برزت صحوة أكاديمية في دراسة المقاصد؛ فهناك العشرات من الرسائل الجامعية والدراسات والأبحاث في المقاصد، بل أصبح يعقد لها مؤتمرات خاصة بها، فضلا عن مقررات خاصة تدرس في المقاصد وتقرر على الطلاب.

ومن أهم المراجع التي يمكن أن يقرأها الداعية في هذا: «نحو تفعيل مقاصد الشريعة» للدكتور جمال عطية، و«مقاصد الشريعة الإسلامية» لمحمد الطاهر بن عاشور، و«الموافقات في أصول الشريعة» للإمام الشاطبي، بالإضافة للدراسات غير المحصورة للعلماء والباحثين المعاصرين.

تاسعًا: ويطيب بعد ذلك للداعية في تكوينه الفقهي أن يلم إلماما معقولا بأنواع جديدة من الفقه نوه بها ودعا إليها كثير من علماء العصر مثل: فقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه السنن، وفقه

BOOK 29.indd 29 5/8/14 6:23:18 PM

الواقع، وفقه النسب ومراتب الأعمال، إضافة إلى فقه النصوص الذي يعالجه علم الفقه، وغيرها من أنواع مما له جذور في تاريخنا الفقهي، وازداد تأصيله والتنويه به في عصرنا الحاضر.

ولا يخفى ما لهذه الأنواع من الفقه من أهمية في فهم الداعية وأثرها في معايشته لقضايا أمته، ونجاحه في دعوته في مجتمع من المجتمعات.

أعتقد أنه لو قام بهذه الوسائل وسلك هذه الطريق على هذا النحو سيكون تكوينه واعدا، ومبشرا بداعية متمكن يراعي مقتضيات العصر في ضوء محكمات الشرع، معتبرا اختلاف الأعراف والبيئات والأشخاص، مراعيا للمقاصد والأوليات، مدركا متطلبات كل عصر وزمان بما لا يتنافى مع أصول الإسلام وأهدافه العامة، وهو ما ينبغي أن يتربى عليه الدعاة.

BOOK 29.indd 30 5/8/14 6:23:18 PM

المبحث الثالث
التكوين الدعوي للداعية

وهو تكوين بدهي ومنطقي؛ إذ كيف يكون داعية من لم يتكوَّن دعويًا؟ ونعني بالتكوين الدعوي ما يُمكِّن الداعية من تبليغ دعوته إلى الناس بعلم وفهم، وحكمة وبصيرة، وللتكوين الدعوي هنا محوران:

المحور الأول: الإلمام بتاريخ الدعوة وسيرة أعلامها مجملا وما ألف فيها.

المحور الثاني: ما يسمى بـ «فقه الدعوة»، وهو علم يجب على الداعية أن يتبحر فيه كي يستطيع أن يمارس دعوته على بصيرة.

المطلب الأول- تاريخ الدعوة وأعلامها ومؤلفاتها:

والمقصود بتاريخ الدعوة هنا أن يلم الداعية إلماما جيدا بتاريخ الدعوة الإسلامية عبر مراحلها المختلفة، ابتداء بعصر النبي صلى الله عليه وسلم ومرورا بعصر الخلفاء الراشدين، والعصر الأموي ثم العباسي، ثم العثماني، ثم تاريخ الدعوة في كل دولة من الدول الإسلامية التي قامت فيها دعوة إسلامية في بلاد مختلفة، مثل: مصر، وبلاد الأندلس، والمغرب العربي، وغيرها.

الفرع الأول- تاريخ الدعوات قبل النبي وبعده:

ومن المفيد قطعا أن يطالع تاريخ الدعوات الأخرى قبل النبي صلى الله عليه وسلم فيقرأ سير الأنبياء وتاريخ دعوتهم مع أقوامهم، ومراحلها، وكيف كانت نهاياتها. وليس أمامنا مصدر موثوق به في هذا الصدد إلا ما ورد في القرآن الكريم.

BOOK 29.indd 31 5/8/14 6:23:18 PM

ثم يطالع بعد ذلك تاريخ الدعوات المعاصرة مثل دعوة محمد بن عبد الوهاب، ودعوة النورسي، ودعوة السنوسي، ودعوة محمد عبده، ودعوة أبي الأعلى المودودي، ودعوة حسن البنا، وغيرها من الدعوات؛ ليستخلص أروع ما فيها من فوائد وإيجابيات، ويتجنب أبرز ما فيها من أضرار وسلبيات، وهذا يعطيه بعدا ثقافيا وأفقا فكريا جديدا، يتميز بالواقعية والإمكانية القريبة للقياس عليه والأخذ منه والانتفاع به.

والمطلوب من الداعية في هذا التاريخ أن يتعرف على أحداثه بشكل توثيقي يضمن معه صحة الأحداث، ويقرأ وقائعه ومعاركه، وكيف تكونت كل دولة، والبحث عن أسباب ازدهارها وقوتها، والتعرف على عوامل سقوطها وانهيارها.

كما ينبغي عليه أن يتعرف على أعلام الدعوة في كل مرحلة من مراحلها وفي كل خلافة قامت في تاريخها؛ بحيث يقرأ سيرهم وتاريخهم؛ ليقف على طبيعة دعوتهم وتكوين أعلامهم، وكيف كان دورهم في نشر دعوتهم، وجهادهم وتضحيتهم، وصبرهم على ما لاقوه من محن وابتلاءات.

كل هذا عن طريق الكتب التي اهتمت برواية هذا التاريخ بعيدا عن الاتجاهات المختلفة التي فسرت التاريخ حسب أهوائها ومذاهبها، ومللها ونحلها، بل يقرأ التاريخ أحداثا فقط عبر مصادره الموثقة، في مثل: البداية والنهاية لابن كثير، والكامل لابن الأثير وسيرة ابن هشام، وغيرها، حتى يسلم له الحدث التاريخي خالصا صافيا قبل أن تشوبه التفسيرات الحزبية والمذهبية التي غالبا ما يشوبها التعصب للمذهب أو الطائفة.

BOOK 29.indd 32 5/8/14 6:23:18 PM

الفرع الثاني- تاريخ الرجال:

وإذا كانت هذه هي مصادر التاريخ وأحداثه فإن لتاريخ الرجال كتبا أخرى ينبغي مطالعتها في سير الرجال والدعاة وتراجمهم، مثل: كتاب «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» لمحمد رجب البيومي، و«رجال من التاريخ» لعلي الطنطاوي، و«عظماؤنا في التاريخ» لمصطفى السباعي، وكتب الأعلام التي كتبها محمد أبو زهرة: «أبو حنيفة»، و«مالك»، و«الشافعي»، و«ابن حنبل»، و«ابن حزم»، وغيرهم، و«علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي، و«نزهة الخواطر» لعبد الحي الحسني والد الشيخ أبي الحسن الندوي، و«من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» لعبد الله العقيل، و«علماء ومفكرون عرفتهم» لمحمد المجذوب، و«رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للشيخ أبي الحسن الندوي، بالإضافة إلى سلسلة «أعلام المسلمين» وسلسلة «علماء ومفكرون معاصرون» اللتين تصدرهما دار القلم بدمشق.

ومن المهم الاطلاع على ما كتبه بعض الدعاة من سير ذاتية ومذكرات شخصية لهم، مثل المشايخ: حسن البنا، وعبد الحليم محمود، ويوسف القرضاوي، وعلي الطنطاوي، وأبو الحسن الندوي، ومالك بن نبي، وأبي الأعلى المودودي، ومصطفى السباعي، وعبد الحميد كشك، وحسنين مخلوف، وخالد محمد خالد، وحسن العشماوي، وعبد العزيز كامل، وتوفيق الشاوي، وأحمد حسن الباقوري، وغيرهم كثير.

BOOK 29.indd 33 5/8/14 6:23:18 PM

الفرع الثالث- مؤلفات في علم الدعوة:

ومما يندرج تحت هذا المحور قراءة المؤلفات التي ألفت في الدعوة كعلم، وهي من الأهمية بمكان؛ حيث يدرس الداعية الدعوة دراسة علمية، ومن أهم هذه الكتب: كتاب «أصول الدعوة» لعبد الكريم زيدان، وبنفس العنوان لعبد الرحمن عبد الخالق، و«المدخل إلى علم الدعوة» لمحمد أبو الفتح البيانوني، و«مع الله.. دراسات في الدعوة والدعاة» لمحمد الغزالي، و«الدعوة قواعد وأصول» لجمعة أمين عبد العزيز، و«أسس الدعوة» لمحمد الوكيل، و«الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها» لأحمد أحمد غلوش، و«الدعوة إلى الإسلام وأركانها» لأحمد عز الدين البيانوني، و«الدعوة الإسلاميَّة دعوةٌ عالميَّة» لمحمد الراوي، و«فصولٌ في الدعوة الإسلامية» لحسن عيسى عبد الظاهر، و«الدعوة إلى الله» لتوفيق الواعي، وغيرها كثير.

المطلب الثاني- فقه الدعوة

أما المحور الثاني في التكوين الدعوي للداعية فهو ما أسميناه «فقه الدعوة»، والفقه هنا - الذي يعني الفهم لغة - يجمع بين أمرين:

الأول: العلم بماهية الدعوة إلى الله تعالى، وبموضوعها، وبطرق كسب ذلك العلم، والثاني: العلم بقواعد وأحكام تنزيل ذلك على واقع الناس في كل تفاصيله وحاجاته.

فنحن هنا، إذن، في حاجة إلى أمرين عظيمين: العلم بحقيقة الدعوة، والعلم بطريقة تنزيل تلك الحقيقة لتصبح واقعا معيشا ومهيمنا على الحياة ومنظما لها وصانعا لمضامينها.

وإذا كان الإلمام بتاريخ الأنبياء والرسل، وتاريخ الدعوات من بعدهم

BOOK 29.indd 34 5/8/14 6:23:18 PM

هو الإحاطة النظرية والعلمية بالدعوة إلى الله، فإن المقصود بفقه الدعوة أن يتعمق الداعية في أحداث التاريخ، ويتأمل تاريخ الدعوات، ليستخلص منه العبر البليغة والدروس النافعة التي تساعده في فهم الواقع، ويجد فيها تعزية وأسوة وسلوى، ويتلمس فيها الضياء الذي ينير له الطريق.

ومَثَلُ علم الدعوة وعلم فقه الدعوة كمثل التاريخ وفقه التاريخ وفلسفته، فإذا كان علم التاريخ يهتم بالأحداث وتصحيحها وتوثيقها، فإن فلسفة التاريخ وفقه التاريخ يتجاوز ذلك إلى تفسير الأحداث والتماس العبرة النافعة والدروس المستفادة التي يعبر بها الدعاة والعلماء من القديم إلى الحديث إلى الواقع إلى استشراف المستقبل، فكذلك علم فقه الدعوة يتجاوز الدعوة كتاريخ وعلم إلى كيفية الدعوة إلى الله تعالى بمراعاة الزمان والبيئات، واعتبار الأعراف واختلاف الناس بما لا يتعارض مع محكمات الشرع، وبهذا تكون الدعوة على بصيرة كما قرر القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ (سورة يوسف: ١٠٨).

ومن خلال التأمل في تاريخ الدعوات سواء دعوات الأنبياء قبل دعوة الإسلام أو الفترة المكية والمدنية أو دعوات الإصلاح الحديث يستطيع الداعية أن يقف على أسباب النصر وأسباب الهزيمة وأسباب التقدم وأسباب التخلف وأسباب نهوض الأمم وعوامل سقوطها، فيدرك أهمية الارتقاء بالمستوى الروحي وأهمية عمق الإيمان واليقين، وضرورة العلم في النهوض بالأفراد والجماعات، وأن الصراع بين الحق والباطل سنة أبدية من سنن الله الجارية التي

BOOK 29.indd 35 5/8/14 6:23:18 PM

لا تبديل لها ولا تحويل، وأن من أسباب النصر تربية الناس على الاعتزاز بالإسلام وبث الأمل في نفوس المسلمين، وهذا كله يستقى من القرآن والسنة والسيرة.

الفرع الأول- أهمية القرآن مصدرا للداعية:

وأهم مصدر على الإطلاق في هذا السياق وأول المصادر التي يجب أن يرجع إليها الداعية ويهتم بها اهتماما بالغا هو القرآن الكريم؛ ذلك أنه حوى بين دفتيه ما يبصر الداعية بطبيعة الطريق، ويضع يديه على بدايات المشوار وأحداثه ونهاياته، طبيعة العقيدة – طريقة التبليغ – طبيعة استقبال القوم لها –حقيقة مشاعر الرسول– تحقق النذير، وذلك مع كل دعوة من الدعوات، فالقرآن العظيم مليء بقصص السابقين من الأنبياء والدعاة.

وهناك قواعد كلية كثيرة تتخلل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه، مثل: وحدة الإيمان، ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله ، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح. وإن فضل الله ليس حِجْراً محجوراً على عصبة خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين.

كما ندرك أهمية القصص القرآني في تركيز قواعد التصور الإسلامي وحقائقه، ومنها: حقيقة الوحي الذي يتلو عليهم أخبار أمم بائدة لم يشهدها الرسول المنزَّل عليه هذا الوحي، وحقيقة وحدة العقيدة والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير، وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبينات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل،

BOOK 29.indd 36 5/8/14 6:23:18 PM

وحقيقة تحقق البشرى والوعيد، كما يبشر النبي وينذر، وهذا شاهد من التاريخ، وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل وهي العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إله واحد [1].

كما يتعلم الداعية من خلال هذا القصص الصبر الجميل والنفس الطويل في مواجهة نفوس طال عليها الأمد وهي بعيدة كثيرا أو قليلا عن منهج الله تعالى، وهو ما يحتاج إلى صبر على الالتواءات والانحرافات وثقل الطبائع وتفاهة الاهتمامات؛ كما توجب عليه أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة، ومن ثم فليس القصص القرآني مجرد حكايات تروى، ولكنه لمسات وإيحاءات مقدرة تقديراً.

كل هذا وغيره يستخلصه الداعية من القرآن الكريم عبر قصصه ومواقفه، وأفكاره وتصوراته، وقيمه وموازينه فيما يقدمه بين يدي ما يقصه علينا من أنباء السابقين، وحسبنا في هذا المقام ما للأستاذ سيد قطب من كلمة طيبة تعبر أجمل تعبير، وتدل أتم دلالة وأصدقها فيما يتصل بهذا الأمر في خواطره في نهاية سورة هود وقد قص القرآن على النبي من نبإ الأولين، فيقول يرحمه الله: لقد كان هذا القصص يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، والقلة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها، والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية!

١- راجع: في ظلال القرآن لسيد قطب: ٤/ ١٨٨٠-١٨٨١، دار الشروق - القاهرة.

BOOK 29.indd 37 5/8/14 6:23:18 PM

فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق؛ ويريهم معالمه في مراحله جميعاً؛ ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم في هذا الطريق، وقد بات لاحباً موصولاً بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشري، وبات بهذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً لا موحشاً ولا مخوفاً!

إنهم زُمرة من موكب موصول في طريق معروف، وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلى نقطة الختام وفق سنة جارية، ولا يمضون هكذا جزافاً يتبعون الصدفة العابرة! هكذا كان القرآن يتحرك في الصف المسلم، ويحرك هذا الوصف حركة مرسومة مأمونة، وهكذا يمكن اليوم وغداً أن يتحرك القرآن في طلائع البعث الإسلامي ، ويحركها كذلك في طريق الدعوة المرسوم ..

إن هذه الطلائع في حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه؛ تستلهمه في منهج الحركة وخطواتها ومراحلها وتستوحيه في ما يصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات؛ وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق، والقرآن بهذه الصورة لا يعود مجرد كلام يتلى للبركة، ولكنه ينتفض حياً يتنزل اللحظة على الجماعة المسلمة المتحركة؛ لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه. ا.هـ.

BOOK 29.indd 38 5/8/14 6:23:18 PM

الفرع الثاني- أهمية السنة مصدرا للداعية[1]

ومن المصادر المهمة هنا في تكوين الداعية وبخاصة في مجال فقه الدعوة، السنة النبوية الشريفة؛ حيث ينبغي للداعية أن يتأمل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ليتعلم منها الحكمة وفصل الخطاب، وكيف كان كلامه قليلا ومع ذلك يعبر عن معانٍ كبيرة وجامعة، كما أنه سيجد أساليب النبي في الدعوة من خلال أقواله حيث كان يستخدم أساليب كثيرة، منها:

١- ضرب المثل:

فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق، داخلا من بعض العالية، والناس كنفته[2]، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشئ. وما نصنع به؟ قال «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيا، كان عيبا فيه، لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم»[3].

٢- البيان بالرسم:

عن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل... قال يزيد: متفرقة، على كل سبيل منها

١- أفاض شيخنا الدكتور يوسف القرضاوي في كيفية تعامل الداعية والفقيه مع السنة النبوية في كتابه القيم ثقافة الداعية.

٢- جانبه

٣- رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق برقم: ٢٩٥٧.

BOOK 29.indd 39 5/8/14 6:23:18 PM

شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[١].

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: خط النبي صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به - أو: قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[٢]. وما أكثر الوسائل التقنية التي يمكن للداعية أن يبين ويوضح من خلالها في هذا العصر.

٣- حسن الاستهلال في الحديث:

عن طريق السؤال مثلا، كما في حديث: أتدرون من المفلس؟ أو حديث: ما تعدون الصرعة فيكم؟[٣]. وهذا أسلوب يجذب السامع، ويعلق بصره وسمعه وقلبه بالداعية.

٤- الرفق واللين:

من شيم الدعاة إلى الله الرفق بالناس واللين معهم، وفي موقف الرجل الذي جاء للنبي صلى الله عليه وسلم ليرخص له في الزنا خير مثال على ذلك؛ فعن أبي أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا: مه مه، فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال:

١- رواه أحمد في مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، والآية ١٥٣ من سورة الأنعام.
٢- رواه البخاري: كتاب الرقاق. باب في الأمل وطوله.
٣- الحديثان رواهما مسلم.

BOOK 29.indd 40 5/8/14 6:23:18 PM

فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[1]. فانظر كيف كان عاقبة الرفق واللين!.

وهناك أمور كثيرة وجوانب عديدة يستطيع الداعية أن يحصلها من أقوال النبي في المقامات المختلفة يصعب حصرها، ومن المهم هنا أن يفرق الداعية بين حال وحال، وبين شخص وشخص، وبين مكان وآخر، وبين زمان وغيره، وهذا باب واسع يستحق دراسة منفصلة تستقصي أساليب النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب ليكون الداعية متمكنا من فقه الدعوة.

الفرع الثالث: أهمية السيرة مصدرا للداعية:

وإذا كان القرآن الكريم والسنة النبوية من أهم المصادر التي يجب على الداعية أن يعتمدها في فقه الدعوة وطبيعة الطريق فإن السيرة النبوية العطرة هي التي ترجمت هذا القرآن وجعلت منه كائنا حيا يمشي على الأرض وينتفض بين الناس، ومن هنا تأتي أهمية السيرة

١- رواه أحمد في مسنده، برقم: ٢١١٨٥، مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو ابن وهب الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

BOOK 29.indd 41 5/8/14 6:23:18 PM

في التكوين الدعوي أو تكوين الفقه الدعوي لدى الداعية.

ولن يجد الداعية فروقا بين سيرة النبي وسير الأنبياء السابقين إلا كما الفرق بين النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وبين الأنبياء السابقين في عالمية الرسالة وشمولها مما تطلب مقومات نبوية وتشريعات ربانية تناسب هذه المعطيات.

غير أن دعوة النبي، صلى الله عليه وسلم، تلتقي في خطوطها العامة مع كل دعوات المرسلين في قواعد التصور وحقائق الوجود، وطبيعة الطريق ابتداء وانتهاء.

ويليق للداعية هنا أن يتجاوز -وهو يتكون في فقه السيرة- أحداث السيرة إلى قراءة ما خلف الأحداث وما تعطيه من عبرة وعظة، ويعينه على ذلك أن يطالع ما كتبه العلماء الربانيون حول فقه السيرة، مثل الشيخ محمد الغزالي، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والشيخ منير الغضبان - وكتبه معروفة في هذا الشأن - والدكتور مصطفى السباعي، ولا يفوته أن يتأمل ما كتبه الأستاذ سيد قطب من خواطر حول أحداث السيرة النبوية في القرآن الكريم، فإن فيها من الخير الكثير.

الفرع الرابع- مؤلفات في فقه الدعوة:

وبالإضافة إلى القرآن الكريم والسيرة النبوية المطهرة فإن هناك مؤلفات اهتمت بفقه الدعوة وليس مجرد الدعوة؛ ولكي ينطلق الداعية ويتكون تكونا مرضيا يجب عليه أن يدرس هذه المؤلفات التي اعتنت عناية بالغة بهذا الشأن، ومن أهم هذه الكتب:

BOOK 29.indd 42 5/8/14 6:23:18 PM

كتاب «زاد المعاد» لابن القيم، ومؤلفات الداعية محمد أحمد الراشد، وكثير من كتب الشيخين محمد الغزالي ويوسف القرضاوي، و«فقه الدعوة ملامح وآفاق» من سلسلة كتاب الأمة، و«فقه الدعوة إلى الله» للإمام عبد الحليم محمود، و«فقه الدعوة» للأستاذ مصطفى مشهور في مجلدين، و«فقه الدعوة إلى الله» و«فقه النصح والإرشاد» لعبد الرحمن حبنكة، وللدكتور موسى إبراهيم الإبراهيم: «تأمّلات تربويّة في فقه الدعوة الإسلاميّة»، و«الفقه الحركي في العمل الإسلامي المعاصر»، و«مفاهيم تربويّة في فقه الدعوة الإسلاميّة»، وغير ذلك.

BOOK 29.indd 43 5/8/14 6:23:18 PM

المبحث الرابع
محاذير في طريق التكوين الفقهي الدعوي

يبقى أمامنا أن نحاول وضع بعض المحاذير التي ينبغي على الداعية أن يراعيها ويحذرها حتى لا تفسد تكوينه أو يكون تكوينه مشوها، فيفسد من حيث أراد الإحسان، وقد قسمت هذه المحاذير إلى: محاذير أخلاقية، ومحاذير علمية:

المطلب الأول- محاذير أخلاقية:

وهي محاذير ترتبط بذات الداعية وبنيته وأخلاقه كشخص، وما لم يراع الداعية هذه المحاذير ويحذرها ربما أغلق الله عليه باب التوفيق والتيسير؛ لأنه كما قال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

ومن أهم هذه المحاذير:

- أن تتغير نيته إلى مماراة السفهاء أو طلب دنيا، بعد أن عقد نيته لله تعالى، وهذا يأتي من استحسانه لعلمه الذي بدأ في تحصيله عند مماراة الناس أو مجادلة بعضهم أو إجابته على بعض الاستفسارات فيدخل العجب إلى نفسه وتتحول نيته من الله (الطريق الرأسي) إلى الناس (الطريق الأفقي) مستمطرا مدحهم، ومستجديا ثناءهم، وهذا من أخطر ما يكون على الداعية.

- ومن هذه المحاذير: الاغترار ورؤية الذات، وهو محذور مرتبط ومترتب على ما قبله، فحين يتجه الداعية ويطلب وجه الناس لا وجه

BOOK 29.indd 44 5/8/14 6:23:19 PM

الله، يهتم بذاته، وتتورم عنده الأنا، أولئك الذين ينفخون أنفسهم «كالبالون» حتى ليغطي الورم المنفوخ عن عيونهم كل آفاق الوجود.

– ومنها أيضا أن يستطيل على الناس بعلمه ويتكبر به ويتعالى عليهم في لفتة تحقير لمن حوله حيث يرى أنهم دونه وهو فوقهم بما حصله من علم وعرفه من ثقافات، وهو من أخطر ما يصرف الناس عن الداعية ويسقطه من اعتبارهم في حين أن الموقف الصحيح للداعية أن يتواضع فضلا عن ألا يلقي بالا بمدحهم له متمثلا قول ابن عطاء الله: «الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذامًّا لنفسك لما تستيقنه منها».

المطلب الثاني- محاذير علمية:

وإذا كانت المحاذير الأخلاقية تقطعه عن توفيق الله، وتحجبه عن النور والإلهام والإشراق، فإن إهمال المحاذير العلمية تأتي على ما تبقى لديه من علم مجرد، وتضله عن الطريق تمام الضلال، ومن هذه المحاذير:

– أن يتوقف عن المتابعة والقراءة، حيث يتصور الداعية في بعض الأوقات أنه قد وصل إلى درجة تؤهله للدعوة لم يعد معها في حاجة إلى مزيد متابعة ولا كثير تحصيل، وهنا نذكِّره بالقول المشهور: «لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل».

ونوجه نظره إلى القرآن الكريم في قصة موسى والخضر: ألم يكن موسى من أعلم الناس، فهو نبي صنعه الله على عينه، وعلَّمه من فضله، ومع ذلك حين قام خطيبا في الناس وسئل: من أعلم الناس؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فقال له: بل، عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك.

BOOK 29.indd 45 5/8/14 6:23:19 PM

وروي أن أحد السلف في لحظات موته يسأل صاحبا له عن مسألة في المواريث فقال له: يا أبا فلان، وماذا ينفعك علمها الآن وأنت على فراش الموت ؟! فرد عليه: أفلا أموت وأنا أعلمها خير من أموت وأنا لا أعلمها؟.

وروى ابن الجوزي عن صالح بن أحمد بن حنبل قال: رأى رجل مع أبي محبرة، فقال له: يا أبا عبد الله، إنك قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين ومعك المحبرة تحملها؟! فقال له أبي: «مع المحبرة إلى المقبرة»، وسمعته مرة يقول: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر.

- إهمال جانب على حساب الآخر، فإذا كانت المتابعة والمطالعة الدائمة أمر يجب أن يهتم به الداعية ويداوم عليه، فإن موازنته بين أمور الفقه وأمور الدعوة هو ما يشكل فيه هذا الاتزان المنشود.

فلا يصح للداعية أن تكون كل قراءاته ومتابعاته في الفقه وأصوله وقواعده متناسيا جانب الدعوة وتاريخها وفقهها وآفاقها، فإنه حينئذ تخفت فيه هذه الروح التي تؤثر في الناس ولا يترتب عليها الإنذار: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢).

كما لا يصح منه أيضا أن يتضلع في جانب الدعوة ويهمل جانب الفقه وما يتصل به من أصول وقواعد وضوابط، فإنه حينئذ يفقد الضابط الذي يضبط الروح الدعوية والوهج السماوي، ومن ثم يتعرض للوقوع في محظورات دعوية وفقهية معا.

والمنهج الصحيح أن يوازن الإنسان بين هذين المجالين فيقرأ هنا

BOOK 29.indd 46 5/8/14 6:23:19 PM

كما يقرأ هناك، ويتابع هناك كما يتابع هنا، وإلا أصبح خلقا ممسوخا مشوها بعيدا عن الاتزان ومقتضى الصراط المستقيم.

BOOK 29.indd 47 5/8/14 6:23:19 PM

كلمة أخيرة

وبعد.. فإن هذه هي أبرز ملامح التكون الفقهي والدعوي معا للداعية المسلم المنشود الذي يجمع في تكوينه بين الفقه والدعوة، فلا يهمل جانب الدعوة فتخفت روحه وينطفئ ضياؤه، ويفرط في واجب من الواجبات الشرعية، ولا يهمل جانب الفقه فلا يستطيع أن يضبط مساره الدعوي، ومن ثم تصاب الدعوة على يديه بهزائم شديدة!.

ولا نعني -قطعا- بأن على الداعية أن يتوقف حتى يحوز هذه العلوم، فهو يتحرك بما معه من علم في المساحات التي تتناسب وهذا العلم على طريقة: «بلغوا عني ولو آية»، لكنه لا يجوز أن يدخل فيما لا يحسن وما لا يعلم، فهو مستمر في دعوته بما يستطيع، كما يستمر في طلبه للعلم، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم منذ أول يوم أسلموا فيه، وكلما زاد علمه ازدادت مسئوليته لاتساع المساحة التي يؤدي فيها واجب الدعوة.

وإذا كان كل فقيه يجب أن يكون داعية، فلا يجب أن يكون كل داعية فقيها، فيلزمه من الفقه ما يقيم به واجب الدعوة، وما ينهض به للإجابة على تساؤلات العامة، وهي مكرورة ومعروفة، أما الفقيه فله شأن آخر، ووجود الفقهاء فرض كفاية على الأمة، أما الدعوة فواجب عيني على كل أحد.

إذا كان تكوين الداعية على هذا النحو، فإن أثره وتأثيره في المجتمع سيكون سريعا ومثمرا ومبشرا وواعدا إن شاء الله، فعلى المهتمين بتكوين الدعاة في الهيئات والمؤسسات وفي الجماعات والحركات أن يراعوا ويهتموا بهذه الطريقة في التكوين إذا أردنا للدعوة النجاح والفلاح، والنصر والتمكين، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

BOOK 29.indd 48 5/8/14 6:23:19 PM